

نظيף الطبري لفأعدة «عدم تخصص العموم الإلأبأة»
فأ تفسيره ومناسبة ذلك لروح الفرآن واستمرارية إعآازه العلى

البأأ: مآء صالح قطب^(*)

(*) بأأ أكأدمى - كلىة أصول الدين - أةامعة الإسلامىة العألمىة - مألزىأ.

ملخص البحث:

في عصر التقدم العلمي الهائل الذي نعيشه، اكتشفنا أمثلة كثيرة من إعجاز القرآن العلمي وسبقه في تقرير الكثير من الحقائق العلمية المكتشفة من عهد قريب. ومن روعة البيان القرآني: نثر هذه الإشارات العلمية في ثنايا أصول الخطاب القرآني، مثل توحيد الخالق وأفعاله، ودعوة الخلق للنظر في آيات الكون، والجنة، والنار، والوعد، والوعيد، والهدى والضلال، وهكذا. وبعد الاستقصاء، وجد الباحث أن آيات الإعجاز العلمي قد تُدرج تحت ثلاثة أقسام:

ما ورد بدلالة واضحة لكن بأبعاد لم تُكتشف بعد.

ما ورد بدلالة غير واضحة، ويسمى مجمل القرآن.

ما ورد على سبيل المثل والمجاز.

ثم دللنا على كل قسم بمثال. وبالنظر في بعض خصائص القرآن البيانية - المعينة على استخراج وفهم ما في الآيات من الإعجاز العلمي - وجد الباحث قاسماً مشتركاً بين تلك الخصائص وقاعدة أصولية مهمة يطبقها الإمام الطبري في تفسيره في كثير من آيات الكتاب العامة والمجتملة، وهي: قاعدة عدم تخصيص العموم إلا بحجة يجب التسليم لها. وذكرنا بعض النماذج لتلك القاعدة، حيث يجمع الطبري بين أقوال السلف ويعتبر اللفظ القرآني محتملاً لها كلها.

والقاسم المشترك بين تلك الخصائص، وهذه القاعدة: هو توسيع رقعة المعاني المحتملة الصحيحة لآيات الكتاب العزيز، ضمن بعض الشروط والضوابط؛ مما يُبقي مجال التفسير مفتوحاً لما قد يظهره القرآن من إعجازٍ في العصور اللاحقة. وقد رصد البحث بعض أمثلة الإعجاز العلمي الحديثة، مع شرح كيفية توظيف تلك القاعدة فيها.

وحسن استعمال هذه القاعدة يؤدي إلى فهم شرعي رصين، يمزج بين الأصالة والمعاصرة، حيث يُستفاد من آراء الصحابة والتابعين في التفسير، ويُعتبر كل ما اكتُشف من كنوز القرآن العلمية على مر العصور امتداداً لتلك الآراء وشاهداً على استمرارية إعجاز القرآن، وعلى صدق هذا الكتاب ومن أنزله، سبحانه وتعالى.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، رب السماوات والأرضين، وكل ما بينهما من إنس وجان وسائر المخلوقين، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين، محمد وآله وصحبه وجميع من آمن به واتبع هداه إلى يوم الدين.

لقد أنزل الله كتابه المجيد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضنك إلى السرور، ومن الردى إلى الحبور، فكان موعظةً ورحمةً وشفاءً لما في الصدور. هو الكتاب الخالد الذي لا يغسله الماء، محفوظٌ في الصدور قبل السطور، لا تغيره العصور ولا تلغيه الدهور، نورٌ على نور، حتى يبعث الله الناس يوم النشور. ومن أشرف ما يشتغل به المرء ويسعى لتحصيله هو علم هذا القرآن المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وقد قال من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

وكما أن القرآن له تأثيره وبصمته على الفرد، فكذلك أيضاً على مستوى الأمة الإسلامية كلها، فهو حياتها ودستورها الخالد ومنبع عزتها، وقد قال ربنا جل جلاله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠). والذكر هنا هو الشرف؛ فيكون المعنى لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه شرفكم، كما نقل ذلك ابن جرير عن أهل التأويل ورجحه^(٢).

ولم يرسل الله عز وجل نبياً من الأنبياء إلا وأيده بمعجزات تبرهن على صدقه، فكانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم في حين أن الأنبياء أرسلوا إلى أقوامهم خاصة، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس كافة، ناسب

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، ح ٥٠٢٧، ص ٩٠٨؛ أبو داود، كتاب الصلاة/الوتر-جماع أبواب فضائل القرآن، باب في ثواب قراءة القرآن، ح ١٤٥٢، ص ٢٣٩؛

الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في تعليم القرآن، ح ٢٩٠٧-٢٩٠٩، ص ١١٢١-١١٢٢.

(٢) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق محمود شاكر الحرساني (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت) ج ١٧، ص ١١. وعلى غير عادته اكتفى الطبري بنسبة هذا الرأي إلى أهل التأويل دون ذكرهم بأسمائهم.

ذلك كون معجزات الأنبياء عليهم السلام حسية ومؤقتة، ومعجزة النبي صلى الله عليه وسلم معنوية عقلية وخالدة؛ فبذلك، يبقى القرآن أبداً؛ لِيُبهر العقول، ويعجز أصحابها، لا يندرس كما اندرست معجزات الأنبياء من قبل؛ إقامة للحجة على العالمين.

وفي السابق، كان تناوُل العلماء لموضوع الإعجاز القرآني يتركز على جوانب الإعجاز البيانية والغيبية. ثم جاء هذا العصر الذي قفز فيه العلم قفزات كبيرة وكشف فيه أسراراً علمية مذهلة من الخليّة التي لا تُرى إلا بالمجهر إلى المجرّة التي لا تُرى إلا بالمنظار الفضائي. ومع هذه الاكتشافات الحديثة، وجدنا أن الكثير من الحقائق التي أثبتتها العلم قد ذُكرت سابقاً في القرآن، مما أبرز نوعاً جديداً من الإعجاز، هو الإعجاز العلمي، وإن كان بعض العلماء قد أشاروا منذ قرون إلى تناول القرآن لسائر العلوم التي يحتاجها الإنسان، مثل: الغزالي، والرازي، وغيرهما ممّن جاء بعدهما^(١)، إلا أن هذا العصر يُعتبر العصر الذهبي لهذا النوع من الإعجاز الذي ازدهر فيه وسطع واشتهر.

وبروز هذا النوع من الإعجاز له فوائد جليّة منها:

أ - زيادة الطمأنينة لدى المؤمنين بصدق هذا القرآن، وذلك بإشارته إلى أمورٍ علمية دقيقة لم تُكتشف إلا من قريب، فهو بذلك يلمس جانباً من أهم خصائص هذا العصر وواقعه، وهو العلم الحديث الذي طغى على حياة البشرية اليوم. وفي ذلك تجديد للإيمان، وتقوية لروح النظر والتدبر في عجائب القرآن التي لا تنقضي حقاً.

ب - لفت أنظار الأمة الإسلامية إلى الظواهر الكونية المُحكّمة وما أودع الله في الكون من أسرار علمية؛ ليكون في ذلك شحذ لهم المسلمين في مجال البحث العلمي الذي غفلوا عنه كثيراً؛ مما أدى إلى تخلفهم عن ركب التقدم العلمي والارتقاء الحضاري.

ج - مخاطبة عقول الناس بأبرز ما يشغل بالهم اليوم في دوائر البحث الأكاديمية

(١) شعبان، مروان وحيد، الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث: دراسة تاريخية وتطبيقات معاصرة (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٦)، ص ١٠٩-١١٤. وانظر قضية الإعجاز العلمي لزغلول النجار ص ١٣-١٤.

والمؤسسات والشركات؛ مما يجعل لغة العلم عاملاً مهماً في تبليغ الدعوة الإسلامية وإظهار أبدية رسالة هذا الكتاب المعجز.

وحيث إن الإعجاز العلمي - كما يتداول اليوم - يُعتبر من المجالات الحديثة في علم القرآن وتفسيره، فقد يبدو منقطعاً عما اعتاده الباحثون في هذا المجال. وبالتالي قد يبدو الربط بين الإعجاز العلمي وبين كتب التفسير العريقة صعباً وبعيداً؛ وبخاصة التفسير بالمأثور. لكن بعد النظر في سيد تلك التفاسير وكيفية تطبيق الإمام الطبري لإحدى القواعد الأصولية فيه، نجد أن تضيق تلك الهوة ممكنٌ، بل ومناسبٌ أيضاً. تلك القاعدة هي قاعدة عدم تخصيص العموم إلا بحجة يجب التسليم لها^(١).

منهجية البحث:

منهجية البحث استقرائية واستنباطية كذلك، تقوم على البحث في المصادر والمراجع المرتبطة بالموضوع، مثل: كتب علوم القرآن وتفسيره، وأصول التفسير وقواعده، إضافة إلى كتب أصول الفقه، والكتب الحديثة المعنوية بالإعجاز العلمي. أما غالب الحقائق العلمية وتفصيلاتها الدقيقة المشار إليها في البحث، فمستقاة من مظانها من الكتب العلمية الأجنبية الرصينة والمتخصصة في ذلك العلم، وليس من الكتب الناقلة عنها.

ولإثراء البحث بأحدث المعلومات والدراسات جرت الاستعانة كذلك ببعض المواقع العلمية المتخصصة المعنية برصد آخر تطورات ذلك العلم واكتشافاته.

خطة البحث:

البحث سيقوم بعرض قاعدة «عدم تخصيص العموم إلا بحجة» من الناحية الأصولية وبعض أقوال العلماء فيها. ومن ثم سيتطرق إلى بعض النماذج من تطبيق الطبري لهذه القاعدة الأصولية بشكل عام، وفي غير مجال الإعجاز العلمي. ثم بعد التعرّيج على موضوع الإعجاز العلمي وبعض خصائص القرآن البيانية المرتبطة به،

(١) من هنا فصاعداً، إيراد لفظ القاعدة يشير إلى القاعدة المحورية في هذا البحث وهي قاعدة عدم تخصيص العموم إلا بحجة يجب التسليم لها.

سُنْبِيْنٌ وجه مناسبة القاعدة ومشابقتها لتلك الخصائص . وثمره الربط هذا تظهر في الفصل الرابع حيث نعرض بعض أمثلة آيات الإعجاز العلمي الحديثة والتطبيق العملي للقاعدة على تلك الآيات . وختام البحث سَيُبَيِّنُ أن هذه المنهجية تمثل حلقة وصل بين التفسير بالمأثور والإعجاز العلمي ، وبالتالي يربط بين التراث والحاضر والأصالة والمعاصرة .

والبحث مقسم إلى تمهيد وخمسة فصول وخاتمة كالتالي :

١ - الفصل الأول: تفسير الطبري وأهميته .

٢ - الفصل الثاني: قاعدة «عدم تخصيص العموم إلا بحجة» بين النظرية والتطبيق .

المبحث الأول: تعريف القاعدة وبداياتها .

المبحث الثاني: نماذج من تطبيق الطبري للقاعدة في تفسيره .

٣ - الفصل الثالث: إعجاز القرآن العلمي .

المبحث الأول: إجمال القرآن .

المبحث الثاني: الاشتراك اللفظي والتواطؤ .

المبحث الثالث: كثرة معاني القرآن .

المبحث الرابع: تقسيم آيات الإعجاز العلمي إلى ثلاثة أقسام .

٤ - الفصل الرابع: مناسبة القاعدة لاستمرارية إعجاز القرآن العلمي .

المبحث الأول: اعتراضات قد تَرِدُ .

المبحث الثاني: توظيف القاعدة في بعض آيات الإعجاز العلمي .

٥ - الفصل الخامس: الربط بين الأصالة والمعاصرة .

الدراسات السابقة

بالنسبة للدراسات السابقة، لم أعث على شيء في هذا المجال. نعم، هناك كتابات عن بعض المواضيع بشكل مستقل، مثل الإعجاز العلمي وضوابطه، وأصول التفسير وقواعده ومن ذلك: الإبقاء على عمومات القرآن وتكثير معانيه، والقواعد الأصولية وما يتعلق بالعام والخاص وهكذا. لكن الربط بين هذه الجوانب: هو ما أردت طرحه، حيث لم أجد فيما اطلعت عليه من الكتابات.

وبعد فضل الله سبحانه ومِنَّته، كان هذا ثمرة الوقت المبدول في مجال التفسير، وبخاصة تفسير الطبري، إضافة إلى الاهتمام بموضوع الإعجاز العلمي والبحث فيه. ثم - أيضاً - رغبتُ في إزالة ما يظهر أنه تعارض بين تفاسير الجهابذة القدماء، وبخاصة التفسير بالمأثور، وعجائب القرآن العلمية الحديثة.

الفصل الأول

تفسير الطبري وأهميته

يُعد تفسير الإمام الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»^(١) من أشهر التفاسير وأهمها بصفة عامة، ولا سيما كتفسيره بالمأثور في أواخر القرن الثالث الهجري. وقد أثنى العلماء على هذا التفسير قديماً وحديثاً، فقال الخطيب البغدادي: «كتاب في التفسير لم يصنّف أحد مثله»^(٢)، وقال أبو حامد الإسفراييني^(٣): «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً»^(٤). وهذا

(١) هناك أسماء مختلفة لتفسير الطبري متداولة ومطبوعة. والمُتَّبَتُّ أعلاه هو الاسم الصحيح الذي وضعه بنفسه، كما ذكره في أول كتابه تاريخ الأمم والرسول والملوك.

(٢) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٤)، ج ٢، ص ١٦١. وقد عزاه السيوطي في الإتيقان إلى النووي في تهذيب الأسماء واللغات وليس ذلك، بل كان النووي ناقلًا عن الخطيب البغدادي. انظر تهذيب الأسماء واللغات ١/٩٥.

(٣) الأستاذ العلامة، شيخ الإسلام، أحمد بن محمد الإسفراييني، شيخ الشافعية ببغداد. ونقل ابن الصلاح رأي بعض العلماء في كونه مجدد القرن الرابع، ت(٥٤٠٦). انظر سير أعلام النبلاء ١٧/١١١.

(٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٢، ص ١٦١.

غير مُستغرب عن الإمام الطبري الذي أفنى عمره في الكشف عن معاني القرآن وسبر أغواره، وعلق لذة القرآن بفهم مراد الله منه، كما قال عنه أبو بكر بن مجاهد^(١): «سمعت أبا جعفر يقول: إني أعجب ممن قرأ القرآن ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته»^(٢).

ورغم أن تفسير الطبري عني بإيراد أقوال السلف المختلفة من الصحابة والتابعين بأسانيدها، فإنه امتاز - كذلك - بالتحليل والترجيح والجمع بين الآراء، كل حسب حالته، وذلك من خلال مرجحات مختلفة، مثل: اللغة، والعقل، والسياق، وقواعد تفسيرية مختلفة. ثم إن الأصالة في تفسيره واضحة، حيث يتمتع بمنهجية فريدة في التعامل مع الأمور المختلفة التي يتعرض لها المفسر، مثل: القراءات المختلفة، والإعراب، والإسرائيليات وإجماع المفسرين، إلخ. وفي آيات الأحكام، كان للطبري - أيضاً - آرائه، فهو صاحب مذهب فقهي واضح، لكنه لم يشتهر كباقي المذاهب الفقهية. وتظهر في الكتاب ملكة الطبري الاجتهادية، حيث لم يكن ناقلًا فقط، وإنما اجتهد في توجيه الأقوال واختيار أرجحها، حيث يتكرر تعقيبه الشهير في الكتاب كله: «والصواب من القول في ذلك عندنا...» بعد عرض النقول المختلفة.

صحيح أن هناك من سبق الطبري في تدوين أقاويل الصحابة والتابعين في التفسير مثل وكيع بن الجراح، وعبد بن حميد، وغيرهم، إلا أن الطبري أول من جمع ذلك في كتاب كامل مخصص للتفسير، وأخرجه ذلك الإخراج الذي جعله المرجع الأول لمن لحقه. ولذلك قال صاحب «التفسير والمفسرون»: «هذا ونستطيع أن نقول: إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذي له الأولوية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من

(١) هو الإمام شيخ القراء أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد البغدادي، صنف في القراءات كثيراً، ت(٥٣٤). سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٢١، الأعلام ١ / ٢٦١. في معجم الأدباء، صاحب المقولة هو أبو بكر محمد بن مجاهد، وليس أبو بكر بن مجاهد، ويبدو أنه غير صحيح للأسباب التالية: أ) بقية ترجمة الإمام الطبري عند ياقوت ليس فيها أبو بكر محمد بن مجاهد، وإنما أبو بكر بن مجاهد. ولا وجه لكون الأخير اختصار الأول؛ لأن الأخير ذُكر قبل الأول وبعده ب) أن ياقوت ترجم لأبي بكر بن مجاهد ولم يترجم لأبي بكر محمد بن مجاهد ج) لم أعثر على أبي بكر محمد بن مجاهد في كتب التراجم.

(٢) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء (بيروت: مؤسسة المعارف: ١٩٩٩)، ج ٦، ص ٥٣٠.

ناحية الفن والصناعة»^(١). نتيجة لما سبق، كان تفسير الطبري من أهم المراجع لمن جاء بعده من المفسرين الذين نقلوا عنه، سواء الذين فسروا القرآن بالمنقول مثل ابن عطية الأندلسي وابن كثير وغيرهم، أو الذين نهجوا مناهج أخرى مثل الرازي والقرطبي وغيرهم.

الفصل الثاني

قاعدة «عدم تخصيص العموم لإبحة» بين النظرية

والتطبيق

المبحث الأول

تعريف القاعدة وبداياتها

كثيراً ما ترد في النصوص الشرعية ألفاظٌ وتقريراتٌ عامة. وهذا العموم قد يخصه شيء من القرآن أو السنة أو غيرها من المخصّصات، أو في كثير من الأحيان يبقى على عمومه. وقد تعرض العلماء لهذا الأمر في أبحاث «العام والخاص» وتفرعاتهما، مثل حكم اللفظ العام ودلالته وحجّيته وتخصيصه وغير ذلك، والذي تقرر عند الكثير منهم هو أن الأصل في الألفاظ العامة بقاء العموم حتى يأتي ما يخصه^(٢).

وقد عرفت هذه القاعدة من الناحية التطبيقية العملية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه^(٣). ثم نسب هذا القول - أيضاً - إلى الأئمة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي. فقد ذكر مكي بن أبي طالب^(٤) أن مالكا وأصحابه كانوا يرون صحة إبقاء

(١) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون (القاهرة: دار الحديث، ٢٠١٢)، ج ١، ص ١٨٣.
(٢) أصول السرخسي ١/١٣٣، شرح تنقيح الفصول ص ٩٣، الموافقات ٤/٤٨-٤٩، ٧٠-٧١، شرح الكوكب المنير ١/٢٩٥، إجابة السائل ١/٣١٠، إرشاد الفحول ١/٦٠٩، المحصول ٣/٢٢-٢٣.
(٣) أصول السرخسي ١/١٣٥، إجابة السائل ١/٣١٠، أثر القواعد الأصولية ص ١٣٠-١٣٢.
(٤) العلامة المقرئ صاحب التصانيف، ولد بالقيروان، وأقرأ في جامع قرطبة، وذاع خبره، وله ثمانون مصنفاً، (٤٢٧هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/٣٩٥

العموم حتى يأتي ما يخصه^(١). وقد صرح بذلك الإمام الشافعي في كتابه الفذ «الرسالة» الذي يُعدُّ عمدة كتب أصول الفقه، قائلاً فيه: «ولا يقال بخاص في كتاب الله ولا سنةٍ إلا بدلالةٍ فيهما أو في واحد منهما. ولا يقال بخاص حتى تكون الآية تحتل أن يكون أريد بها ذلك، فأما ما لم تكن محتملةً له فلا يقال فيها بما لم تحتل الآية»^(٢).

وفي موضعٍ آخر، خص سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذكر، وربط بين العام والظاهر حيث قال: «وهكذا غير هذا من حديث رسول الله، هو على الظاهر من العام حتى تأتي الدلالة عنه كما وصفتُ، أو بإجماع المسلمين:— أنه على باطنٍ دون ظاهر، وخاصٍ دون عامٍ..»^(٣) وصرح الإمام أبو حامد الإسفراييني أنه مذهب غيرهم كذلك: «وهذا صحيح، العموم عندنا له صيغة إذا أوردت مجردة عن القرائن دلت على استغراق الجنس. هذا مذهبننا، وبه قال مالك وأصحابه، وأبو حنيفة وأصحابه، وداود وأهل الظاهر، وبه قال من المتكلمين: الجبائي وطائفة»^(٤).

وإن كان أئمة الفقه المذكورون من أوائل من قعد لهذه القاعدة ودونها، فمن الواضح أن الطبري هو أول المفسرين الذين نصرُوا هذه القاعدة بشكل كبير، وعملوا بها تأصيلاً وتطبيقاً في مجال التفسير^(٥). ثم تابعه على ذلك خلقٌ من المفسرين، مثل: ابن عطية في «المحرر الوجيز»، والأكوسي في «روح المعاني»، وغيرهم.

ورغم اتفاق بعض أهل الفقه وأهل التفسير على هذه القاعدة إلا أن الكثير من أهل الفقه وأصوله مالوا إلى الاعتقاد بأن أغلب النصوص العامة قد خُصِّصت، ولعل ذلك

(١) الحربي، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين: دراسة نظرية تطبيقية (الرياض: دار القاسم، ط ٢، ٢٠٠٨)، ج ٢، ص ١٧٥.

(٢) الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة (القاهرة: دار التراث، ط ٢، ١٩٧٩)، ص ٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

(٤) الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠)، ج ٢، ص ١٩١.

(٥) السبت، خالد بن عثمان، قواعد التفسير: جمعا ودراسة (دم: دار ابن عفان، د.ت)، ج ٢، ص ٥٩٩. الحربي، قواعد الترجيح، ص ١٧٥.

له ارتباط بالمنهجية الفقهية القائمة على استنباط الأحكام، وكون التخصيص يراعي اختلاف أحوال المكلفين وقدراتهم^(١). ولذلك، كان الدافع في المجال الفقهي باتجاه تخصيص العام متى تيسر ذلك؛ حتى شاع بين الأصوليين أنه «ما من عام إلا وقد حُصَّ»^(٢).

أما في مجال التفسير، فالإبقاء على العموم وعدم افتراض التخصيص أنسب غالباً، وبخاصة في غير الأحكام الفرعية؛ مما جعل السيوطي يتأول كلام جلال الدين البلقيني^(٣) «ما من عام إلا ويُتخيل فيه التخصيص» أنه ينسحب على الأحكام الفرعية بالذات^(٤). أما الطبري، فنجده يطبق القاعدة حتى على بعض آيات الأحكام المتضمنة لهذه الأحكام الفرعية^(٥). وأصبحت هذه القاعدة من قواعد أصول التفسير المتبعة: «أخبار الله في القرآن تأتي في كثير من الأحيان عامة غير مخصصة، وقد يذكر بعض المفسرين أقوالاً هي في معناها مخصصة لهذا العموم، فيقال في مثل هذا: (الخبر على عمومه حتى يأتي ما يخصه)»^(٦). والإبقاء على العموم هذا له ارتباط وثيق بتكثير المعاني الصحيحة لآيات القرآن كما سيأتي في مبحث «كثرة معاني القرآن».

(١) حامدي، عبد الكريم، أثر القواعد الأصولية اللغوية في استنباط أحكام القرآن (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٨)، ص ١٠٩.

(٢) الحسن، خليفة بابكر، تخصيص النصوص بالأدلة الإجتهدية عند الأصوليين (الأزهر: دار التوفيق النموذجية للطباعة، ١٩٩٣)، ص ٣٥. انظر - أيضاً - العقد المنظوم في الخصوص والعموم للإمام القرافي، ص ٥٥٠.

(٣) هو عبد الرحمن بن عمر، العسقلاني الأصل، ثم البلقيني المصري، المعروف بابن البلقيني، نسبة إلى أبيه سراج الدين، كان من قضاة مصر وعلمائها بالحديث، ت (٥٨٢٤هـ). الأعلام ٣/ ٣٢٠.

(٤) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتيان في علوم القرآن (دمشق: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ٣، ١٩٩٦)، ج ٢، ص ٦٨٢-٦٨٣.

(٥) الطبري، جامع البيان، ٢/ ٦٤١، ٣/ ٧١١٢، ٥٢-٥٣، ١٤٦، ٢٨، ١٦٦-١٦٢.

(٦) الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير (الدمام: دار ابن الجوزي، ٣، ١٩٩٩)، ص ٩٩.

المبحث الثاني

نماذج من تطبيق الطبري للقاعدة في تفسيره

إن تفسير الطبري معروف بتحليله للأقوال المختلفة والترجيح بينها، بناءً على ما تَقَرَّرَ عنده من مرجّحات، لكن مرونته وتوسعه في قبول الآراء المتباينة، ما لم تكن متضاربة، يُعدُّ - كذلك - من سمات تفسيره الخاصة. ففي كثير من الأحيان، يعدد الطبري الآراء المختلفة في الآية، أو لفظ فيها، والآراء مختلفة كلياً أو جزئياً، لكن المعنى يتسع لها جميعاً، فيأخذ الطبري بذلك، محتجاً بأن الأصل إبقاء العموم، وأن التخصيص يحتاج إلى حجة أو قرينة، وأجلُّ تلك القرائن تخصيص من كتاب الله أو على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أكدنا أعلاه، هذا لا يكون إلا في الآراء المختلفة بغير تناقض حتى وإن اختلفت كلياً، وإلا استحال الأخذ بها جميعاً.

ولنأخذ أحد الأمثلة على هذا في سورة البقرة، حيث يذكر الله سبحانه وتعالى موقف تبرؤ الكفار من أتباعهم يوم القيامة. يقول الله عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦). اختلف السلف في المقصود بـ «الأسباب»، فقد روى عبيد المکتب^(١) عن مجاهد أنها الوصال أو التواصل الذي كان بينهم في الدنيا. وروى ابن أبي نجيع عن مجاهد - أيضاً - أنها المودة، وكذلك روى عطاء عن ابن عباس (رضي الله عنهما). وقال قتادة والربيع^(٢): إنها أسباب الندامة، واستشهد الأول بآية ٦٧ من الزخرف عن تحوُّل كل خُلَّة يوم القيامة إلى عداوة إلا خُلَّة المتقين. وروي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) والربيع بن أنس في رواية أخرى عنهما ضعيفة^(٣): أن الأسباب هي المنازل، أي التي كانت لهم

(١) هو عبيد بن مهران الكوفي المکتب، من صغار التابعين. انظر تهذيب الكمال للمزي ٤٣٦٣/٦.

(٢) هو الربيع بن أنس البصري ثم الخراساني، كان عالم مرو في زمانه وحديثه في السنن الأربعة، ت(٣٩ هـ). انظر تهذيب الكمال للمزي ١٨٥٣/٣ و سير أعلام النبلاء ٧٩/٦.

(٣) الأولى ضعيفة؛ لأنها عن طريق عطية العوفي. والثانية ضعيفة؛ لأن رواية أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس فيها اضطراب، كما قال ابن حبان: والناس يتقون حديثه (أي الربيع) ما كان من رواية أبي جعفر (أي الرازي) عنه؛ لأن فيها اضطراب كثير. انظر كتاب الثقات لابن حبان ١٠٤٤/٢.

من أهل الدنيا. وروي بسند منقطع - أيضاً - عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن الأسباب الأرحام^(١). وقال آخرون مثل السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنها الأعمال. والملاحظ أن هذه الأقوال مختلفة كلياً، لكنها ليست متضادة. وبما أن لفظ «الأسباب» مُجَمَل^(٢)، فلا يبعد أن تكون كل هذه الأشياء من الأسباب التي انقطعت عنهم في ذلك الموقف الرهيب، أي وصالهم وأرحامهم وأعمالهم وغير ذلك. وهذا ما يؤكده الطبري بعدما عقب على ذلك كله بشرح معنى «الأسباب» لغوياً وذكر بعض الآيات التي تبين عدم انتفاع الكفار بشيء يوم القيامة ولعن بعضهم بعضاً وغير ذلك، ثم قال: «وكل هذه المعاني أسباب يتسبب في الدنيا بها إلى مطالب، فقطع الله منافعتها في الآخرة عن الكافرين؛ به لأنها كانت بخلاف طاعته ورضاه، فهي منقطعة بأهلها، فلا خلال بعضهم بعضاً ينفعهم عند ورودهم على ربهم، ولا عبادتهم أندادهم ولا طاعتهم شياطينهم، ولا دافعت عنهم أرحام فنصرتهم من انتقام الله منهم، ولا أغنت عنهم أعمالهم بل صارت عليهم حسرات، فكل أسباب الكفار منقطعة، فلا معنى أبلغ في تأويل قوله: «وتقطعت بهم الأسباب» من صفة الله، وذلك ما بيّنا من جميع أسبابهم دون بعضها على ما قلنا في ذلك. ومن ادعى أن المعنى بذلك خاص من الأسباب سُئِلَ عن البيان على دعواه من أصل لا منازع فيه، وعورض بقول مخالفه فيه، فلن يقول في شيء من ذلك قولاً إلا أُلزِمَ في الآخر مثله»^(٣).

ولا شك أن حمل الأسباب على كل تلك الأمور أثرى للمعنى وأجمع للبيان، حيث يُصَوَّرُ للسامع مظهر كل تلك الأصناف وقد يئست من كل ما دون الله تعالى. وليس في ذلك تنقُصاً لآراء أحد من السلف، بل هو تعظيم لجميعها، كما قال ابن تيمية: «وجمع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً، فإن مجموع عباراتهم أدل على المقصود من عبارة أو عبارتين، ومع هذا فلا بد من اختلاف محقق بينهم، كما يوجد مثل ذلك في

(١) عبد الباري، عبد المحيد الشيخ، «الروايات التفسيرية في فتح الباري»، المكتبة الشاملة (رسالة دكتوراة، ٢٠٠٦)، ج ١، ص ١٧٦.

(٢) وهو ما لم تتضح دلالاته ويحتمل أكثر من معنى، وتفصيل ذلك يأتي في مبحث إجمال القرآن.

(٣) الطبري، جامع البيان، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

مثال آخر على تطبيق القاعدة يأتي في سورة القيامة حيث يقول تعالى: ﴿يَبْنُوْا الْإِنْسَانَ﴾^(١) فيما قدم وأخر الإنسان، فقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن ذلك ما عمل قبل موته، وما سنَّ فَعْمَلٌ به بعد موته. وزاد ابن مسعود (رضي الله عنه) ما سن من خير أو شر بعد موته. والرأي الآخر لابن عباس (رضي الله عنهما) أنه ما قدم من المعصية، وأخر من الطاعة، فينبأ بذلك وهو مروى عن العوفي وهو ضعيف. والرأي الثالث المروي عن مجاهد من أكثر من طريق هو أنه أول عمل الإنسان وآخره. ورأي قتادة أنه ما قدم من طاعة الله وما أخر مما ضيَّع من حق الله. وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال: ما قدَّم من خير أو شرَّ مما عمله، وما أخر مما ترك عمله من طاعة الله. ثم عقب الطبري على كل ذلك بقوله: «والصواب من القول في ذلك عندنا: أن ذلك خبر من الله أن الإنسان يُنبأ بكلِّ ما قدَّم أمامه مما عمل من خير أو شرِّ في حياته، وأخر بعده من سنة حسنة أو سيئة مما قدَّم وأخر، كذلك ما قدَّم من عمل عمله من خير أو شرِّ، وأخر بعده من عمل كان عليه فضيَّعه، فلم يعمله مما قدَّم وأخر، ولم يخص الله من ذلك بعضاً دون بعض، فكلُّ ذلك مما يُنبأ به الإنسان يوم القيامة»^(٢). إذن، يرى الطبري ألا حاجة لتخصيص معنى دون آخر، والأقوال ليست متناقضة، ولا يوجد مُرَجِّح أو مُخصَّص يدعو إلى اعتماد رأي دون آخر.

وقد فعل الطبري الشيء ذاته في بعض الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية، مثل قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴿٢٠﴾ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠). كعادته أتى بأقوال السلف المختلفة في معنى «لا يبغيان»، فمن قائل: لا يبغي أحدهما على صاحبه، ومن قائل: لا يختلطان، ومن قائل: لا يبغيان على اليبس. ثم ختم الطبري بقوله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن

(١) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مقدمة في أصول التفسير (عمان: دار عمار، ١٩٩٧)، ص ٢٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٩، ص ٢١٩-٢٢٠.

الله وصف البحرين اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخص وصفهما في شيء دون شيء، بل عمّ الخبر عنهما بذلك، فالصواب أن يُعمّم كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: إنهما لا يبغيان على شيء، ولا يبغى أحدهما على صاحبه، ولا يتجاوزان حدّ الله الذي حدّه لهما^(١). وكما اكتشفنا من أبعاد لهذه العبارة المعجزة «لا يبغيان»، كما سيأتي في مبحث توظيف القاعدة.

ومن الطريف: أن الطبري نهج الطريقة ذاتها في أحد أهم الآيات المستشهد بها في مجال الإعجاز العلمي، وهي التي تؤجل زمن ظهور بعض حقائق القرآن وهي قوله تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨). وقد اختلفوا في تحديد «الحين» في الآية، فلخص الطبري قائلاً: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أعلم المشركين المكذبين بهذا القرآن أنهم يعلمون نبأه بعد حين، من غير حد منه لذلك الحين بحد، وقد علم نبأه من أحيائهم الذين عاشوا إلى ظهور حقيقته، ووضوح صحته في الدنيا، ومنهم: من علم حقيقة ذلك بهلاكه ببدر، وقبل ذلك، ولا حد عند العرب للحين، لا يُجاوز ولا يقصر عنه، فإذا كان ذلك كذلك فلا قول فيه أصح من أن يُطلق كما أطلقه الله من غير حصر ذلك على وقت دون وقت»^(٢).

ثم إن الطبري فعل الشيء ذاته في بعض الأوصاف العامة التي أقسم بها الرب جلّ وعلا في كثير من السور، مثال ذلك: تفسيره لـ «المرسلات» و «الناشرات» وغير ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقَتِ ذِكْرًا ۝٥ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ (المرسلات: ١-٦). فقد جاء بأقوال السلف - على عادته - حيث قال بعضهم: أن «المرسلات» هي الرياح،

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٥١-١٥٢. ولا يضر ترجيح الطبري قبل ذلك أن البحرين هما بحر الأرض وبحر السماء (المطر)، لأنه رجح ذلك بمقتضى الآية التي بعدها، حيث لم يتوفر لديه ما أثبتته الدراسات اليوم من حاجز بين بحار الأرض المالحة، وما شاهدها - أيضاً - بأمر أعيننا من حاجز بين أنهار الأرض وبحارها كذلك، وذلك بما أحرزناه من تقدم علمي ودراسات للكثير من هذه الظواهر. والمقصود في نهاية الأمر هو: منهجيته، وليس رأيه بالذات.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٣، ص ٢٢١.

وقال آخرون: هي الملائكة، ثم عقب الطبري قائلاً: «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرفاً، وقد تُرسل عُرفاً الملائكة، وتُرسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدلّ على أن المعنيّ بذلك أحد الحزبين دون الآخر، وقد عمّ جلّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكلّ من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك، مَلَكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلًا»^(١). ثم عرض آراء السلف في «الناشرات» فجاءت أقوالهم مطابقة لآرائهم في «المرسلات» مع زيادة احتمال أن «الناشرات» هي المطر. وكرر الطبري كلامه السابق في «المرسلات»، آخذاً بعموم الوصف. وفعل الشيء ذاته في «الفارقات» بعدها، وإن كان معنى «الفارقات» مختلفاً عما سبق. وقسّ على ذلك الكثير من الأوصاف العامة التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى، مثل «النازعات» و«الموريات» وغير ذلك، ما لم يرد دليل لتخصيص رأي على آخر^(٢).

في كل الأمثلة أعلاه، جاءت آراء السلف متباينة كلياً ليس جزئياً، ورغم ذلك لم يرَ الطبري بأساً في حمل معنى الآية على الأقوال كلها. وإذا كان ذلك ممكناً في الآراء المختلفة كلياً، فبطريق الأولى أن ينطبق على الأقوال المختلفة جزئياً، مثل قولهم في «الصراف المستقيم»: إنه القرآن، أو الإسلام، أو السنة، والجماعة، وغير ذلك، فهذا من قبيل تعدد الأسماء واتحاد المسمى، أو صفات عدة لذات واحدة، وهذا من قبيل اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد^(٣).

الفصل الثالث

إعجاز القرآن العلمي

سبق الكلام عن أهمية إعجاز القرآن العلمي وارتباطه بكون الإسلام خاتم الرسالات

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٢٩، ص ٢٧٢.

(٢) أما في بعض الأوصاف مثل «الزاجرات» و«العاديات» فقد رجح الطبري أحد الآراء لاعتبارات سياقية ولغوية وغيرها.

(٣) ابن تيمية، المقدمة، ص ١٧-١٨.

والشرائع. وقد علق الإمام السيوطي على أهمية استمرار الإعجاز القرآني بتعليق جميلٍ حيث قال: «وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة - لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة - حُصِّت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليرهاها ذوو البصائر، كما قال صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر؛ وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»»^(١) وللتنبية على استمرارية إعجاز القرآن وأهميته في كل زمان، أنكر الطاهر ابن عاشور على الشاطبي قائلاً: «هذا والشاطبي قال في الموافقات: «إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب»، ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصي من مشكلات في مطاعن الملحدين؛ اقتصاداً في البحث، وإبقاءً على نفيس الوقت، وإلا فكيف ينفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور! وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته؛ وإذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة فهذا إعجاز إقناعي بعجز أهل عصر واحد، ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن»^(٢).

وجوه إعجاز القرآن كثيرة ومتنوعة وتنقسم غالباً إلى الإعجاز البياني والغبيي والعلمي والتشريعي وبعضهم يذكر أيضاً العددي، والله تعالى أعلم بما تكشفه الأيام لنا من عجائب هذا الكتاب المعجز، وفي كل نوع من أنواع الإعجاز تفصيلات وتفريعات أخرى؛ لتوصل معجزات القرآن إلى آلاف المعجزات^(٣)، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن القدر المعجز من القرآن عند جمهور العلماء هو سورة واحدة منه طالت أو قصرت^(٤)،

(١) السيوطي، الإتيان، ج ٢، ص ١٠٠١. أما الحديث ففي البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: كيف نزول الوحي؟ وأول ما نزل، ح ٤٩٨١، ص ٩٠٢.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير (تونس: دار التونسية للنشر، ١٩٨٤)، ج ١، ص ١٢٨. وإن كانت الإشارة إلى الإعجاز بشكل عام، لكن المراد الإعجاز العلمي، وذلك لأنه في معرض الكلام عنه.

(٣) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥)، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٤) مسلم، مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن (دمشق: دار القلم، ط ٤، ٢٠٠٨)، ص ٤٠.

وأقصر سورة لديها ثلاث آيات، مثل العصر والنصر والكوثر. أما المقصود من هذا البحث فهو الإعجاز العلمي.

والفارق بين الإعجاز العلمي وباقي وجوه الإعجاز هو: زمن ظهور الإعجاز؛ وذلك لأنه مرتبطٌ بالاكتشافات العلمية البشرية عبر العصور والدهور، مما يكسبه طابع التجدد، حيث لا ينكشف إلا مع تطور العلوم والدراسات. ولا يُستثنى من ذلك إلا الإعجاز الغيبي فيما يخص غيب المستقبل، إلى حد ما، وذلك من حيث ظهور إعجازه عند وقوع ما أخبر به القرآن سابقاً. أما جانب الإعجاز التشريعي المتعلق بالمكتشفات والدراسات الحديثة مثل حكمة نسبة الزكاة وزمن عدة المرأة وغيرها فذلك أقرب إلى الإعجاز العلمي منه من الإعجاز التشريعي.

ثم إن التجدد والتدرج في ظهور الإعجاز العلمي يذكره ابن عاشور صراحةً في معرض كلامه عن الإعجاز العلمي في مقدمته العاشرة لتفسيره التحرير والتنوير: «وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبج للناس شيئاً فشيئاً انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله؛ لأنه جاء به أمِّي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم»^(١).

وهناك بعض الخصائص لدى البيان القرآني التي تلعب دوراً مهماً في تمهيد الطريق لاستخراج الإعجاز العلمي في آياته، وفسح المجال لذلك النوع من الفهم المتعلق بالعلوم الكونية المعاصرة، وهي: إجمال القرآن، والاشتراك اللفظي، والتواطؤ.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ١٢٧.

المبحث الأول

إجمال القرآن

اللفظ المجمل في اللغة هو: ما ليس له دلالة واضحة، أي قد يحتمل أكثر من معنى^(١)، ويحتاج إلى بيان، ويذكر الزرقاني ضمن خصائص الأسلوب القرآني جمعه بين الإجمال والبيان. فبعد أن شرح استحالة كون كلام البشر مجملاً ومبيناً في آن واحد، بينَ خُلف القرآن لذلك قائلاً: «ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة، فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد، أما أنها بينة أو مبينة (بتشديد الياء وفتحها): فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معانٍ جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً، وكما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد»^(٢).

هذا من حيث الإعجاز البياني بشكل عام، لكن لهذه الخصيصة في الإعجاز العلمي تطبيقٌ خاص؛ وذلك أن الكثير من آيات الإعجاز العلمي لن يظهر إعجازها إلا إذا كانت الآية أو اللفظ مجملاً له عدة دلالات. والسبب في ذلك أنه إذا كان اللفظ مفصلاً تفصيلاً علمياً لا لبس فيه لما فهمه من قرأ القرآن قبل ظهور ذلك العلم، بل وربما كان ذلك حجةً على القرآن وليس إعجازاً، لقصور الأفهام على إدراك تلك المعاني المستقبلية.

وعن توزيع آيات الإعجاز العلمي في القرآن يطرح كارم غنيم السؤال الآتي: «لماذا لم تتجمع الآيات الكونية في موضع واحد من القرآن؟» فيجيب: «ولو جمعت هذه الآيات في موضع واحد على أنها بيان تام لجميع أطوار التكوين لتعذر فهمها قبل تحصيل مقدماته بالبحث العلمي، ولكانت فتنة لبعض من فهمها جملة»^(٣). ثم حيث إن القرآن

(١) السيوطي، الإتقان، ج ٢، ص ٦٩٣.

(٢) الزرقاني، مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٥٣-٢٥٤.

(٣) غنيم، كارم السيد، الإشارات العلمية في القرآن الكريم: بين الدراسة والتطبيق، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٥)، ص ٦١-٦٢.

هو كتاب إلهي غايته هداية وإرشاد البشرية، منذ عهد إنزاله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وليس مقررأً أو كتاباً جامعياً هدفه شرح تفاصيل علم من العلوم، فإن غالب الآيات المتعلقة بالظواهر الكونية لا تأتي مجتمعة، وإنما منثورة كالدرر في ثنايا الكتاب وتأتي في سياق إظهار قدرة الخالق وعظمته؛ ومن العظمة كذلك: إيداع أسرار الكون العلمية ضمن تلك الآيات بتلك الطريقة العجيبة والنسق المترابط.

والإجمال المذكور لا يعني أبداً عدم الوضوح، بل المفردات القرآنية في غاية الدقة العلمية، بعد اكتشاف المعنى المراد منها، وأحياناً بعض المعاني الإضافية الموحاة أيضاً. وهذا ما يعبر عنه مصطفى مسلم بمرونة الأسلوب الذي يتسع لأكثر من معنى حيث قال: «الأسلوب القرآني في الآيات مرّن يقبل وجوهاً في التأويل، فينبغي أن يكون معلوماً لدينا أن القرآن الكريم عندما يعرض القضايا الكونية أو الجوانب المادية أو المعنوية في الإنسان أو ما يحيط به، يستعمل أسلوباً مرناً يقبل وجوهاً للتأويل»^(١). وهذا يقودنا إلى موضوع الاشتراك اللفظي والتواطؤ.

المبحث الثاني

الاشتراك اللفظي والتواطؤ

الاشتراك اللفظي والتواطؤ من الأسباب المهمة التي أدت إلى اختلاف المفسرين، وإن كان اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد في غالبه. والمُشْتَرَك اللفظي هو: لفظ واحد يدل على عدة معانٍ، أو بعبارة أخرى اتحاد الاسم واختلاف المسميات^(٢). وأمثله في القرآن كثيرة نحو «الهدى» و «الصلاة» و «الروح» وغير ذلك. أما المتواطىء، فهو لفظ عام ينطبق على أفراد متعددة، ومثاله في القرآن أسماء الأجناس مثل القَسَم بـ «الفجر» و «العصر»، والأوصاف العامة مثل «الذاريات» وغيرها^(٣). وقد صرح الزركشي أن

(١) مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص ١٦١.

(٢) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (بيروت: دار الكتب

العلمية، ١٩٩٨)، ج ١، ص ٣١.

(٣) الطيار، أصول التفسير، ص ٦٢.

مصطلح الوجوه والنظائر في علوم القرآن ينسحب على المشترك والمتواطئ^(١).

أما الطبري فقد أطلق الأمر مرة أخرى فاتحاً الباب لتعدد المعاني المقبولة بقوله: «والكلمة إذا احتملت وجوهاً، لم يكن لأحد صرفُ معناها إلى بعض وجوها دون بعض، إلا بحجة يجب التسليم لها»^(٢). وحيث إن إمكان الجمع بين المعاني المختلفة واردة في كثير من الأحيان، لم يعد الشاطبي ذلك من قبيل الخلاف أصلاً وإن كان ظاهره الخلاف: «وأكثر ما يقع ذلك في تفسير الكتاب والسنة، فتجد المفسرين ينقلون عن السلف في معاني ألفاظ الكتاب أقوالاً مختلفة في الظاهر، فإذا اعتبرتها وجدتها تتلاقى على العبارة كالمعنى الواحد، والأقوال إذا أمكن اجتماعها والقول بجميعةا من غير إخلال بمقصد القائل فلا يصح نقل الخلاف فيها عنه...»^(٣)

صحيح أن موضوع تعميم اللفظ المشترك - وهو أن يُراد المعنيان أو المعاني كلها باللفظ الواحد - قد أخذ نصيبه من البحث والأخذ والرد عند علماء اللغة وأصول الفقه بين مجيزٍ ومانعٍ وما بينهما، لكن مالكاً والشافعي وبعض أهل الكلام ذهبوا إلى جوازه^(٤)، وزاد ابن تيمية الحنابلة أيضاً^(٥). وهذا ما رجحه من المتأخرين: رشيد رضا^(٦)، وابن عاشور - أيضاً - بشرط احتمال اللفظ له وعدم خروجه عن فصاحة اللغة: «والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني... وقد كان المفسرون غافلين عن تأصيل هذا الأصل؛ فلذلك كان الذي يرجح معنى من المعاني التي يحتملها لفظ آية من القرآن، يجعل غير ذلك المعنى ملغى. ونحن لا نتابعهم على ذلك بل نرى المعاني المتعددة التي يحتملها اللفظ بدون خروج عن مهيع الكلام

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١)، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ١، ١٥٩.

(٣) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات (الجيزة: دار ابن عفان، ٢٠٠٠)، ج ٥، ص ٢١٠.

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (الكويت: دار السلاسل، ط ٢)، ج ٤، مادة «اشتراك»، ص ٣١٠-٣١١.

(٥) ابن تيمية، المقدمة، ص ٢٢.

(٦) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار (بيروت: دار المعرفة، ط ٢، د.ت)، ج ٤، ص ٣٤٧-٣٤٨.

العربي البليغ، معاني في تفسير الآية^(١). فهذه الخصائص تدفع باتجاه تكثير المعاني المحتملة لآيات القرآن، لكن بالقواعد والضوابط.

المبحث الثالث

كثرة معاني القرآن

هذا أصل مهم في فهم آيات القرآن وتفسيره. فقد أنزل الله القرآن ليكون هدى للناس ونوراً منذ مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، فجعله المولى تبياناً لكل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩). ويناسب كون القرآن تبياناً لكل شيء حمله على كل المعاني الصحيحة التي يمكننا استخراجها منه. وأهمية هذا الأصل تكمن في كونه مبنياً على نظرة عامة للقرآن توجه المفسر إلى توسيع رقعة المعاني المحتملة والمقبولة فيه، وليس تضيق دائرة الاحتمالات وحمل الكلام على معنى واحد. ولعل ذلك ما أشار إليه أبو الدرداء^(٢) رضي الله عنه في قوله: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً»^(٣). قال السيوطي: «وقد فسره بعضهم بأن المراد: أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد»^(٤). وذكر ابن عساكر أن أحد رجال السنن في أثر أبي الدرداء وهو

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٩٩-١٠٠. بتصرف.

(٢) وقد عزاه بعض العلماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يصح ذلك. قال ابن عبد البر: «وهذا حديث لا يصح مرفوعاً، وإنما الصحيح فيه: أنه من قول أبي الدرداء». انظر جامع بيان العلم وفضله، باب من يستحق أن يسمى فقيهاً أو عالماً حقيقة لا مجازاً، ومن يجوز له الفتيا عند العلماء، ح ٨٥٩، ص ٣٠٥. قال ابن حجر: «وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء» انظر فتح الباري، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، ج ٨، ص ١٨١. فالأثر إذاً موقوف منقطع.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٢، ص ٢٧٣، واللفظ له؛ مصنف عبد الرزاق، باب العلم، ح ٢٠٤٧٣، ج ١١، ص ٢٥٥؛ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن - من قال: اعملوا بالقرآن، ح ٣٠٧٧١، ج ١٠، ص ٥٣. وفي نسخ أخرى لمصنف ابن أبي شيبة: من قال: اعملوا بالقرآن وليس «اعملوا»، والصحيح ما أثبتنا، بدليل الحديث الذي بعده في ذات الباب الذي يحث على امتثال أوامر القرآن.

(٤) السيوطي، الإتقان، ج ١، ص ٤٤٦.

حماد بن زيد سأل شيخه الذي روى عنه أيوب السختياني: «أرأيت قوله: حتى ترى للقرآن وجوهاً؟ قال فسكت هنيهة، قال: فقلت: أهو أن ترى له وجوهاً فتهاج الإقدام عليه؟ فقال: نعم هذا هو»^(١).

وهذا الثراء في معاني القرآن هو ما لفت إليه الزرقاني واضحاً في الاقتباس أعلاه تحت مبحث إجمال القرآن. وقد بين ابن القيم أن هذه هي الطريقة الصحيحة للنظر في معاني القرآن بقوله: «وهذا هو المعهود من ألفاظ القرآن كلها أنها تكون دالة على جملة معانٍ، فيعبر هذا عن بعضها، وهذا عن بعضها، واللفظ يجمع ذلك كله»^(٢). وهكذا صرح الشنقيطي مبيناً استقرار العلماء على هذا الأصل: «تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع»^(٣).

ويربط مصطفى مسلم الأمر بموضوع الإعجاز العلمي تحت عنوان «عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة» موضحاً: «عند إحاطتنا بدلالات الكلمة اللغوية الحقيقية والمجازية واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدتها الحقيقة العلمية على أن لا نحكم بالبطلان والفساد على الدلالة التي رجحناها من جهة أخرى، فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجحنا على ضوئها هذه الدلالة إحدى وجوه دلالات الآية، وظلالها ممتدة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا، إلا أن التقدم العلمي والحضاري كفيل أن يميظ اللثام لنا عن جوانب أخرى»^(٤). وينبغي التنويه هنا إلى أن هذه الأقوال المختلفة الداعية إلى حمل القرآن على معانٍ صحيحة كثيرة، لا تُطلق العنان لكل من سوّلت له نفسه أن يفسر القرآن على هواه، فهي دعوة لها ضوابطها من القواعد التفسيرية واللغوية والعلمية.

-
- (١) ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧)، ج ٤٧، ص ١٧٣.
(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، ص ١٦٩.
(٣) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦)، ج ٢، ص ٦٩.
(٤) مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ص ١٦٢.

المبحث الرابع

تقسيم آيات الإعجاز العلمي إلى ثلاثة أقسام

بعد استقراء الآيات الكثيرة المتعلقة بالإعجاز العلمي، سواء أكان ذلك في مجال الفضاء أو علوم الأرض أو الأحياء أو الطب أو غيرها، وجد الباحث أن أغلب ذلك قابل للانضواء تحت ثلاثة أقسام: ما ورد بدلالة واضحة لكن بأبعاد لم تُكتشف بعد، أو ما ورد بدلالة غير واضحة وهو المعنيّ بمجمل القرآن، أو ما ورد على سبيل المثل والمجاز. وفي هذا التقسيم ردّ على سؤال قد يُطرح وهو: «كيف يتحقق الإعجاز العلمي؟ أو بعبارة أخرى كيف يظهر أن في كلمة أو آية إعجاز علمي وقد أنزلت منذ قرون طويلة وفسرها المفسرون في كل العصور؟» والجواب المتضمن أعلاه يفيد أن ذلك لا يكون إلا من خلال خفاء المعنى العلمي المراد في أول الأمر، والحاصل من خلال إحدى تلك الحالات الثلاثة؛ حتى يأتي ما يجلي ذلك الخفاء. ولعل الأمر يتوضّح ببعض الأمثلة.

أما ما ورد واضحاً لكن بأبعاد غير معروفة فمثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧). ووجه ذلك: أن إطلاق التوسّع على الكون واضح، والمعنى المتبادر إلى الذهن أولاً هو: خلق الله لهذا الكون بهذه المساحات الشاسعة والأطراف المترامية التي اكتشف علماء الفضاء منذ مدة غير طويلة أنها تقاس ليس بمليارات الكيلومترات، بل بمليارات السنين الضوئية^(١). وأبعد ما رُصد فلكياً في الكون - حتى الآن - هي مجرة أو شبه مجرة على بعد حوالي ١٣،٣ مليار سنة ضوئية من الأرض^(٢)! وهذا إن صحّت كل هذه القياسات. وهذا التوسع الهائل بشكل عام، هو ما فهمه السلف والمسلمون وعلمائهم عبر العصور، لكن ما لم يتصوره أحد هو: أن ذلك

(١) السنة الضوئية هي المسافة التي يجتاها الضوء خلال سنة ميلادية كاملة، وذلك يعادل تقريباً ٩ ونصف مليون مليون (أي ترليون) كيلومتر!

(٢) - Wall, Mike, "Ancient Galaxy May Be Most Distant Ever Seen", w www.space.com D - cember 2012 and "NASA Great Observatories Find Candidate for Most Distant Object in the Universe to Date", www.nasa.gov, November 2012.

التوسع ليس حالة مضت، بل حالة قائمة في الوقت الحاضر، أي أن الكون ليس بثابت، بل هو في توسع مستمر منذ الانفجار الكبير (Big Bang) وحتى الآن. فالكون يكبر شيئاً فشيئاً وتتباعد أطرافه عن بعضها، كما اتضح من خلال تجارب العالم الأمريكي هابل (Hubble) والتي بيّنت أن المجرات تتباعد عنا، وذلك من خلال قياس ضوئها وميوله إلى الطرف الأحمر من الطيف (Redshift). وزيادة على ذلك، حاز ثلاثة علماء على جائزة نوبل الفيزياء عام ٢٠١١ لاكتشافهم أن توسع الكون هذا يتسارع ولا يتباطأ، بخلاف ما أرادوا إثباته في أول الأمر، فهذه أبعاد لم تكن متصورة أبداً لمعنى توسيع الكون في الماضي. بل حتى أينشتاين (Einstein) في سنة ١٩١٥ من القرن الماضي استبعد احتمال توسع الكون معتبراً إياه بمنتهى الغرابة وتخلّى عن هذه الفكرة، رغم أن معادلات النظرية النسبية العامة (general relativity equations) التي ابتكرها هو قد أرشدته إلى ذلك الاحتمال.

وأما ما ورد مجملاً بغير دلالة واضحة ففي قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (العلق: ١٦). فرغم أن دلالة الكذب والخطأ واضحة، لكن إطلاق تلك الأوصاف على الناصية غير واضح، وهو ما حير العلماء عبر القرون. وهذا حدا بالعلماء السابقين للقول: بأن الآية من قبيل المجاز، أو من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، بمعنى أن الإنسان هو الكاذب والخطيء وأن الأخذ بالناصية فيه تنكيل له. ثم جاء العلم الحديث المتعلق بالسيكولوجيا العصبية (neuropsychology) ليبيّن أن دماغ الإنسان ليس كتلة واحدة من حيث الوظائف المنوطة به بل هو مُقسّم إلى أربعة فصوص رئيسية: الفص الجبهوي (frontal lobe) والفص الجداري (parietal lobe) والفص الصدغي (temporal lobe) والفص القفوي (occipital lobe)، وكل فص مسؤول عن وظائف معينة^(١). ثم بالإمكان تقسيم الفص الجبهوي الأمامي إلى الشق الخلفي الذي فيه مراكز الحركة (primary motor cortex & premotor cortex) والمسؤولان عن تحركات

(١) وادي، علي أحمد، و الجنابي، إخلاص أحمد، أساسيات علم النفس الفسيولوجي (عمان: دار جرير، ٢٠٠٥)، ص ٧٣-٧٥.

الجسم، والشق الأمامي الذي يقع خلف الناصية مباشرة (prefrontal cortex) والذي دوره الرئيس في تنظيم التصرفات والتفكير والتخطيط^(١). وبذلك يكون جزء الدماغ الذي وراء الناصية مباشرة هو المركز الرئيس لاتخاذ القرارات، بما في ذلك عمل الخير أو الشر، فناسب تسميته بالناصية الكاذبة الخاطئة. وهكذا ظهرت الحكمة وتبين الإعجاز في إطلاق الكذب والخطأ على الناصية نفسها، وليس على صاحب تلك الناصية.

ومن أمثلة المجمل الذي لم تتضح دلالاته - كذلك - وصف الجبال بالأوتاد، والأرض بذات الصدع، والنجم بالثاقب، وبعض الأوصاف العامة التي أقسم بها الله سبحانه وتعالى مثل الخُسن الجوارِ الكُنس، وغير ذلك، مما قد يدل على أكثر من معنى، أو حيث لم يتضح وجه إطلاق تلك الصفة على ذلك الموصوف.

أما القسم الثالث - وهو المثل والمجاز - فيدل عليه قوله عز وجل: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ لَحِيدٍ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧). هنا ضرب الله لنا مثلاً للحق والباطل، مشبهاً الباطل بالزبد الناتج عن عمليتين: سيلان الأودية بالماء واستخدام النار لاستخراج المعادن، والزبد الناتج في الحالتين يذهب جُفاءً في آخر الأمر. ثم إن المولى قد شبه الحق بالنافع الثابت الذي يملك في الأرض لمصلحة الناس. ورغم كون هذا مثلاً مجازياً ضربه الله للبشرية، فلنا أن نتساءل عن سبب مقارنة هاتين العمليتين بالذات ووجه تشبيه الزبد في المجال الأول بنظيره في المجال الآخر، لقد أظهرت دراسة حديثة أن الظاهرة الأولى تسمى التطهير الذاتي للمسطحات المائية، وأن العملية الأخرى هي عملية التعدين المعروفة، وأن العلاقة بين التطهير والتعدين ليست علاقة عابرة. فقد اكتشف العلماء حديثاً أن ظاهرة التطهير الذاتي

An Introduction to Brain and Behavior (New York: ,Q Ian ,Whishaw & ,Bryan ,Kolb (١) Worth Publishers, 2nd ed., 2006), pg413-414, 525, 534, and Kalat, James W., Biological Psychology (Canada: Thomson Wadsworth, 9th ed., 2007), pg100.

هي «عبارة عن مجموعة من الأساليب الهيدروولوجية والفيروكيميائية والبيولوجية لتصفية المياه من ملوثاتها العضوية»^(١). أما التعدين: فحتى وقت قريب كان الأسلوب الرئيس لاستخراج المعادن هو: المعالجة الحرارية المعروفة بـ (pyrometallurgy). غير أن العلم الحديث أثبت أنه من الممكن استخلاص المعادن بطرق جديدة تعتمد على عوامل هيدروولوجية وبيولوجية وكيميائية شبيهة بما يحصل في عملية التطهير المائي الذاتي^(٢). وأُطلق على هذه العمليات مصطلح (hydrometallurgy)، والذي قد ينقسم إلى (chemical leaching) في حالة استخدام الحوامض الكيميائية لإذابة المعادن في المحاليل، و (bioleaching) في حالة استخدام البكتيريا لاستخراج تلك المعادن، خاصة في مناجم النحاس والزنك^(٣). إضافة إلى ذلك، فإن الزبد الناتج عن عملية التعدين بهذه الوسائل الجديدة شبيه جداً بالزبد الناتج عن عملية التطهير الذاتي في الأودية. وهكذا تظهر لنا وجوه من الإعجاز العلمي في مثل ضربه الله للبشرية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ولم يفهم عبر العصور إلا في المجال المجازي.

الفصل الرابع

مناسبة القاعدة لاستمرارية إعجاز القرآن العلمي

من خلال استعراض بعض خصائص القرآن المعينة على استخراج جوانب الإعجاز العلمي في آياته، يتبين لنا أن قاعدة إبقاء العموم في بعض الآيات العامة والمجملّة، ما لم يرد دليل أو حاجة للتخصيص، مناسبة جداً كذلك لنفس الغرض. فكما أن تلك الخصائص تفسح المجال لوجود تأويلات ومعانٍ مختلفة منسجمة مع روح القرآن وكتلياته ودلالات اللغة، فكذلك قاعدة «عدم تخصيص العموم إلا بحجة». وحيث إن الإعجاز العلمي المكنون في آيات الكتاب لن يُرفع الستار عنه إلا في عصر يتطور فيه

(١) الشيخ، محمد بن الهادي، «جوانب من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في مجالي التطهير والتعدين»، بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علوم الأرض والبحار، ص ١٠٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٤.

العلم لاكتشاف ذلك، فتلك الخصائص وتلك القاعدة يُيقون مجال التفسير مفتوحاً لما قد يظهره هذا الكتاب المعجز في العصور والقرون اللاحقة، فرغم أننا اكتشفنا الكثير من الإعجاز العلمي في آيات الكتاب؛ ليس بعيداً بل هو المناسب لاستمرار إعجاز القرآن، أن تظهر وجوهٌ جديدة للإعجاز في آيات الكتاب في المستقبل، ولا سيما في الآيات التي ظننا أننا اكتشفنا ما فيها من إعجاز.

المبحث الأول اعتراضات قد ترد

فإن قال قائل: الطبري ينتقد من يفسر برأيه، فكيف نوفق بين استخدامه للقاعدة والإعجاز العلمي الذي يتم الربط بينهما؟ فنقول: أما تعنيف الطبري على من فسر القرآن برأيه فصحيح، وقد روي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(١) و«من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»^(٢)، ولكن الحديثين لا يخلوان من مقال. والرأي الممقوت - هنا - هو الهوى وما قيل بغير علم، كما يوضحه الحديث الثاني، من غير نظر في قواعد أصول التفسير أو اللغة أو غيرها، فلا يعتبر ما ذكرنا أعلاه من ذلك، ويزيد الأمر وضوحاً ما قاله أبو

(١) أبو داود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، ح ٣٦٥٢، ص ٥٧٩؛ الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، ح ٢٩٥٢، ص ١١٣٨؛ النسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، ح ٨٠٣٢، ج ٧، ص ٢٨٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ح ١٦٧٢، ج ٢، ص ٤٥٠. وفي الإسناد: سهيل بن أبي حزم. قال البخاري: لا يتابع في حديثه، يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: صالح، وقال النسائي: ليس بالقوي، وكذلك قال أبو حاتم، وزاد: يُكتب حديثه، ولا يُحتج به، وقد روى له الأربعة. انظر تهذيب الكمال ٤/ ٢٦٢٩، ص ٤٧٥. قلت: الحديث ضعيف الإسناد؛ وذلك لأنه من أفراد سهيل بن أبي حزم. وإن كان يُكتب حديثه، فإنه لا يُحتج به إذا انفرد. والله أعلم.

(٢) الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، ح ٢٩٥٠-٢٩٥١، ص ١١٣٨؛ النسائي في الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، ح ٨٠٣٠-٨٠٣١، ج ٧، ص ٢٨٦؛ مسند أحمد، ح ٢٠٦٩، ج ٢، ص ٥٠٨. وفي الإسناد عبد الأعلى بن عامر. قال أحمد بن حنبل وأبو زرعة: ضعيف الحديث، وقال النسائي: ليس بالقوي، ويُكتب حديثه. وقد روى له الأربعة. انظر تهذيب الكمال ٦/ ٣٧١١، ص ٦. قلت: الحديث ضعيف الإسناد، وذلك لأن مداره على عبد الأعلى، لكن له متابعة عند ابن حبان من حديث ابن عباس قد يتقوى بها، انظر كتاب الثقات، كتاب من روى عن أتباع التابعين، عبد الله بن شيبان الصغاني ٥/ ١٨٩٤، ص ٢٥٩.

حيان الأندلسي في مقدمة تفسيره البحر المحيط: «(وما روي) عنه صلى الله عليه وسلم من قوله (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) محمول على من تسوّر على تفسيره برأيه دون النظر في أقوال العلماء، وقوانين العلوم، كالنحو واللغة والأصول وليس من اجتهد ففسر على قوانين العلم والنظر بداخل في ذلك الحديث، ولا هو يفسر برأيه، ولا يوصف بالخطأ»^(١).

وقد شرح أيضاً الإمام البغوي هذا الحديث في تفسيره: «قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم. فأما التأويل - وهو صرف الآية إلى معنى محتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط - فقد رُخص فيه لأهل العلم»^(٢). وزاد الماوردي في تفسيره، معلقاً على نفس الحديث: «فتمسك فيه بعض المتورعة ممن قلّت في العلم طبقتّه، وضعفت فيه خبرته، واستعمل هذا الحديث على ظاهره، وامتنع أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهدّه، إلا أن يرد بها نقل صحيح، ويدل عليها نص صريح، وهذا عدول عما تعبد الله تعالى به خلقه في خطابهم بلسان عربي مبين... وجعل لهم سبلاً إلى استنباط أحكامه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ ولو كان ما قالوه صحيحاً، لكان كلام الله غير مفهوم، ومراده بخطابه غير معلوم.. ولهذا الحديث - إن صح - تأويل، معناه: أن من حمل القرآن على رأيه، ولم يعمل على شواهد ألفاظه، فأصاب الحق، فقد أخطأ الدليل»^(٣).

فإن قال قائل: الطبري لا يرى الخروج عن آراء السلف في التفسير، والشاطبي لم يكن يرى إضافة العلوم الطبيعية وغيرها إلى القرآن، بناءً على عدم خوض السلف فيها،

(١) أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٩٩٢)، ج ١، ص ١٣.

(٢) البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١٠)، ج ١، ص ٩-١٠.

(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، النكت والعيون (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. ج ١، ص ٣٤-٣٥ بتصرف).

فنقول: نعم، الطبري يأخذ برأي السلف - بشكل عام - من حيث إنهم أعراف الناس بمراد الله؛ لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وفترة التنزيل وإتقانهم للغة القرآن وغير ذلك، ولا سيما في الثوابت التي يَقلُّ فيها التغيُّر عبر الزمن. لكن تطبيقه لقاعدة إبقاء العموم وعدم تخصيصه إلا بدليلٍ مخصَّص، كما سبق، جعله يخرج ضِمنياً عن بعض تلك الآراء، ليس لأنه رفض تلك الآراء، وإنما لأنه أطلق الأمر ولم يحصُر الحق في تفسير تلك الآية أو ذلك اللفظ على ما عيَّنه بعض السلف. وكان الدافع في ذلك إبقاء الأمر على عمومه، في غياب قرائن التخصيص. أضف إلى ذلك أنه ربما لجأ إلى التفسير باللغة عند غياب تفصيل السلف في المسألة، كما سيأتي في المبحث التالي. وكل النماذج والنقول في الفصل الثاني حيث شرحنا تطبيق الطبري للقاعدة تؤيد ما ذهبنا إليه، مما يوسع دائرة التأويل فيما قد تنطبق عليه تلك الآية أو ذلك اللفظ. أما رأي الشاطبي، فقد تناول ابن عاشور الرد عليه بعدة حجج في مقدمة تفسيره الرابعة^(١)، منها: أن السلف أكدوا أن القرآن لا تنقضي عجائبه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه. والحجة الأخرى أن الخطاب القرآني كان في بدايته تأسيسياً، وبالتالي لا بد أن يكون مفهوماً لدى أصحاب ذلك الوقت. أما بعد ذلك: فالمعاني المتجددة التي قد تزيد على المعاني الأساسية، قد يفهمها أقوام ويُحجَّب عنها آخرون.

ثم قد يقول قائل: إن القاعدة المذكورة متعلقة بالعام والخاص، وآيات الإعجاز العلمي تدور على الإجمال. فالجواب: أن الطبري طبق هذه القاعدة حتى على الألفاظ المجملة واعتبرها نوعاً من العموم، وذلك من حيث وجود أكثر من معنى صحيح ومحتمل لذلك المُجمل. فمثال انقطاع أسباب الكفار أعلاه هو من قبيل المجمل. وقد طبق الطبري القاعدة في لفظ «فمستقر ومستودع» في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (الأنعام: ٩٨)، وهو لفظ مجمل يحتمل عدة معانٍ، وقد نقل أقوال السلف المختلفة فيها. وطبق القاعدة كذلك على كلمة «علامات» في قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَنَّا وَبِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦)، وهو أيضاً لفظ مجمل يحتمل

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١، ص ٤٥.

معاني مختلفة، فأبقاه الطبري على عمومه قائلاً: «فكل علامة استدل بها الناس على طرقهم، وفجاج سبلهم، فداخلٌ في قوله ﴿وَعَلَّمْتَهُ﴾»^(١)، وغير ذلك من الأمثلة. وتظهر الحكمة في ذلك حيث إنه من المتصور جداً أن نكتشف أموراً عجيبة في خلق الله مستقبلاً تكون بمثابة العلامات لهداية الناس الطريق، تضاف إلى ما سبق ذكره وما اكتشفناه في عصرنا هذا.

المبحث الثاني

توظيف القاعدة في بعض آيات الإعجاز العلمي

بعد استعراض قاعدة «عدم تخصيص العموم إلا بحجة» في تفسير الطبري ودراساتها نظرياً، لنرى كيف يكون التطبيق العملي فيما يخص الإعجاز العلمي.

يقسم ربنا جل جلاله في سورة الذاريات: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (الذاريات: ٧). وينقل الطبري كعاداته الأقوال المأثورة في تفسير الآية، فإما أن تكون السماء ذات الحُبكِ هي ذات خَلْق حسن واستواء، أو ذات زينة، أو حبكت بالخلق الحسن والنجوم، أو المتقنة البنيان، أو السماء السابعة، أو أنه تشبيهه بالنسيج المحبوك، أو حبكها مثل حَبِّك الرمل، وحبِّك الدرع، «وحبِّك الماء إذا ضربته الريح، فنسجته طرائق»^(٢). وإن كان الطبري لم يعلق كعاداته على عدم تخصيص رأي من الآراء، لكنه سكت عنها ولم يرجح أحداً منها، مما يوحي ضمناً أن الآراء عنده مقبولة. ولم يُتَح لنا أن نكتشف أبعاد تلك الكلمة حتى عصر العلم والتكنولوجيا هذا، حيث جمع علماء الفضاء الكثير مما توفر لدينا من معلومات عن الكون وتركيبته، ومحتوى المجرات المليئة بالنجوم ومسافاتهما، وغير ذلك، وأودعوها في جهاز حاسوب ضخم ليقوم بمحاكاة شكل الكون (computer simulation) على مسافات مليارات السنين الضوئية^(٣). وأنتج

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٤، ص ١١٢.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٢٦، ص ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) "The Millennium Simulation Project", Max Planck Institut fur Astrophysik www.mpa-garching.mpg.de

هذا الحاسوب العملاق صوراً عجيبة لشكل الكون بعدما ضغط مليارات السنين الضوئية في إطار صورة صغيرة، وأظهر الكون على شكل خطوط متداخلة ومتشابكة من المجرات (galaxy filaments) وبكثافة عالية جعلته يشبه الشبكة المنسوجة، مما حدا ببعض العلماء وصف ذلك الشكل بالشبكة الكونية أو النسيج الكوني (cosmic web)^(١). وعندئذ كانت الدهشة لدى علماء المسلمين الذين ما برحوا يتلون قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾، ذلك الوصف الخالد الذي بين لنا منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً أن السماء محبوكة حبكاً أشبه بما ينسجه النسّاج. وفي عام ٢٠٠٩، وصف العلماء ما اكتشفوه من شبكة مجرات عملاقة تبعد سبعة مليارات سنة ضوئية عن الأرض أنها بمثابة هيكل عظمي للكون (cosmic skeleton) وسبب رئيس في تماسكه^(٢). وهذا معنى آخر مستفاد من «الحبك» وهو الشد والوثق.

وحيث إن هذه الأبعاد المكتشفة حديثاً منسجمة تماماً مع المعنى اللغوي للحبك، وعندما تصبح حقيقة مُجمَع عليها لا مجرد نظرية، فلا يبعد أن يكون هذا معنىً جديداً وبعداً إضافياً للآية على طريقة الطبري في عدم تخصيص العموم كما شرحنا أعلاه. ويكون الصحابة والتابعون فهموا من ذلك اللفظ ما فهموه ونحن فهمنا بعداً علمياً جديداً له، بناءً على الاكتشافات والعلم الحديث، ولا عجب أن يستمر الإعجاز بل هو المتوقع، فيكتشف أهل العصور القادمة أبعاداً جديدة لذلك القَسَم العجيب والوصف الخالد: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾.

في سورة النازعات، يوضح لنا الله عز وجل عَظَمَ خَلْقِ السَّمَاءِ ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿(النازعات: ٢٧-٢٨). جاء في الآيتين ثلاثة أوصاف لصنع الله للسماء، وهذه الألفاظ حبلية بالمعاني التي يمكن استخراجها،

(١) "A Glimpse of the Very Early Universal Web", European Southern Observatory www.eso.org, May 2001

(٢) "Shedding Light on the Cosmic Skeleton", European Southern Observatory www.eso.org, November 2009

إلا أن محل الشاهد هنا هو: تسوية الله للسماء. فقد أوّل الطبري هذا اللفظ بقوله: «فسوى السماء، فلا شيء أرفع من شيء، ولا شيء أخفض من شيء، ولكن جميعها مستوي الارتفاع والامتداد»^(١). ويبدو أن تأويل الطبري هذا مستند إلى اللغة بشكل رئيس، خاصة أنه لم يرد عن السلف تفصيل في ذلك، فالتسوية في اللغة تأتي بمعنى التعديل وجعل الشيء مستوياً، قال ابن منظور: «سوى الشيء وأسواه: جعله سوياً.. ومكانٌ سويٌّ وسيٌّ: مستوٍ.. واستوى الشيء: اعتدل»^(٢). وقال الزبيدي: «والسواء: (المستوي)، يقال: أرض سواء، أي: مستوية»^(٣).

إن علماء الفضاء اليوم متعجبون من هذا الكون، فحيثما نظروا لاحظوا أن الكون يبدو بنفس الهيئة، أي أن هناك تماثل وتجانس في الكون في كل مكان (homogeneous) وفي كل جهة (isotropic)، حتى أن بعضهم يقول: إن هناك مبالغة في هذا التماثل والتجانس، أي أنه أكثر من اللازم أو المتوقع^(٤). ولأهمية هذا الأمر افتتح أحد العلماء الغربيين كتابه عن علوم الكون والفضاء بهذه الحقيقة^(٥). وبعد النظر والتنقيب، لا يوجد دليل في الكون لا على طرف ولا على مركز^(٦). وهذا الاكتشاف مبني على المعلومات التي وفرها لهم ما يسمى بالإشعاع الميكروي الخلفي الكوني (Cosmic Microwave Background-CMB) الصادر منذ الانفجار الكبير والذي يملأ الكون بصورة شبه متجانسة، وقد لاحظوا أن حرارة هذا الإشعاع شبه متساوية في كل أطراف الكون وهو

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٣٠، ص ٥٥.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ١٩٩٠) ج ١، ص ٤١٤-٤١٥ بتصرف. وانظر الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩)، ج ٦، ص ٣٥٧-٣٥٩.

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١)، ج ٣٨، ص ٣٢٣.

(٤) University Wudka, Jose, Space-Time, Relativity, and Cosmology (New York: Cambridge Press, 2006), pg229-230.

(٥) Weinberg, Steven, Cosmology (New York: Oxford University Press, 2008), pg1

(٦) Duncan, Todd, & Tyler, Craig, Your Cosmic Context: An Introduction to Modern Cosmo - .ogy (San Francisco: Pearson Education Inc, 2009), pg142-143

ما يزيد قليلاً عن الصفر المطلق (absolute zero)^(١). وهذا التجانس في الكون هو رأي كثير من علماء الفضاء اليوم، وإن كان ما زال في الأمر بعض نقاش؛ فبعضهم يشترط لذلك التماثل النظر على مستويات بعيدة، أي أكثر من ٣٠٠ مليون سنة ضوئية.

إذا ثبتت هذه الأوصاف للكون، ألا يكون ذلك تأويلاً عجبياً وجميلاً للفظ «فسواها»؟ أي أن الله سبحانه وتعالى سَوَّى السماء فجعلها مستوية ومتماثلة في كل مكان وفي كل جهة. وعلى قاعدة «عدم تخصيص العموم إلا بحجة» وحمل القرآن على معانٍ كثيرة صحيحة، نكون قد استفدنا بعداً جديداً لهذا اللفظ المعجز «فسواها»، وسيبقى بمدلولاته اللغوية المختلفة معطاءً عبر العصور والأزمان، تُعْرِفُ منه الأجيال القادمة المزيد من المعاني العذبة.

أما ما يتعلق بآيتي سورة الرحمن وذكر البرزخ بين البحرين: فلقد كشف العلم الحديث أن في المحيطات كتل مائية مختلفة (water masses) بخصائص محددة من الحرارة والملوحة، وبالتالي الكثافة، وغيرها من الخصائص، وأن هذه الكتل تحافظ على خصائصها هذه، رغم الجريان الذي يحصل في أعماق المحيطات والمسمى (thermohaline circulation) أو الدوران المدفوع بالتباين الحراري والملحي^(٢)؛ وهذه التسمية باعتبار أن العامل الأساس في هذا التحرك هو كثافة الكتلة المائية التي تعتمد على الحرارة والملوحة بشكل رئيس. فكتلة المياه الأكثر كثافة تجري تحت الكتلة الأقل كثافة، وحيث إن الحواجز واضحة بين الكتل المائية المختلفة، أطلق علماء البحار أسماء مختلفة لهذه الكتل باعتبار محافظتها على خصائصها، ووصفوا تحرك هذه الكتل من جهة إلى أخرى، فهناك ما يسمى بكتلة مياه شمال الأطلنطي العميقة (North Atlantic Deep Water-NADW) وهناك مياه المتوسط العميقة (Mediterranean Deep Water-MDW) وهناك مياه بحر العرب (Arabian Sea Water-ASW)

(١) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

(٢) Garrison, Tom, Essentials of Oceanography (California: Brooks/Cole- Thomson Learning, 3rd ed., 2004), pg.152-153 and Wells, Neil, The Atmosphere and Ocean: A Physical Introduction (New York: Wiley, 2nd ed., 1997), pg.154-155

وغير ذلك كثير^(١).

وهكذا تلتقي هذه الكتل المائية المختلفة وتصعد كتلة فوق الأخرى ويبقى هناك «برزخ» بينهما يمنع كتلة من أن «تبغي» على الأخرى. إذن يظهر أن لفظ «لا يبغيان» يشير إلى عدم الاختلاط الكامل الذي ينتج عنه امتزاج الخصائص المائية. والأمر ذاته ينطبق على البحار المتجاورة التي درسها العلماء مثل الأطلسي، والمتوسط، والبحر الأحمر، وخليج عدن، وخليج عمان، والخليج العربي، وهذه البحار محافظة على خصوصياتها رغم مجاورتها^(٢). وهكذا يظهر وجه الجمع بين مَرَج البحرين الذي يعني إرسالهما، وجعل حاجز بينهما، إذ قد يظهر بينهما شيء من التعارض. فأظهرت الاكتشافات أن هذا ما يحصل بالضبط: تلاقى الكتل المائية وجريانها المستمر، لكن دون اختلاط كامل يُفقد كل كتلة خصائصها. وهذا في البحار المالحة بالذات؛ أما بين المياه العذبة المتمثلة بالأنهار والمياه المالحة في البحار، فبالإضافة إلى البرزخ يوجد ما يسمى بـ «الحجر المحجور»، والذي فُسرُّ بأنه الخُور الذي يحتوي على مياه متوسطة الملوحة بين العذب الفرات والملح الأجاج، والله أعلم.

وكم كان الطبري على حق حينما ترك الخبر عامًّا لیتسع المعنى لكل ما اكتشفناه من أبعاد لتلك الظاهرة. ومع جزمنا أن هذه الحقائق تمثل التفسير العلمي الصحيح لقوله «لا يبغيان»، فحريٌّ بنا أن نترك الخبر على عمومه مفسحين المجال للأجيال اللاحقة لتكتشف أبعاداً جديدةً لهذه الآية وهكذا في كل جيل؛ إعظاماً للنص القرآني، وحفاظاً على استمرارية إعجازه وعطائه غير المجذوذ.

وبالنسبة لتوظيف القاعدة في آيات الإعجاز العلمي، فالشيء ذاته ينطبق على الأوصاف العامة مثل «المرسلات» و «النازعات» وغيرها، فقد نكتشف أبعاداً جديدةً

(١) Emery, W.J., "Ocean Circulation: Water Types and Water Masses", Encyclopedia of Atmospheric Sciences (Elsevier: 2003) and "Dynamics of Mediterranean Deep Waters", CIESM Workshop Monographs, Monaco, 2009.

(٢) الزندانى، عبد المجيد، و السمرة، محمد إبراهيم، و راو، دركا برسداد، منطقة المصب والحوافز بين البحار في القرآن الكريم (مكة: هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د.ت)، ص ٤٧-٤٨، ٥٢.

في المستقبل لهذه الأوصاف من خلال اكتشاف أمور تنطبق عليها تلك الأوصاف، ولم تكن في الحسبان، ومن الأوصاف التي قد ينطبق عليها هذا ولها تفسير علمي اليوم وصف «الخنس الجوار الكنس» التي أقسم بها الله في كتابه. فبعض العلماء والباحثين اليوم يرون أنها تشير إلى الظاهرة الفضائية المعروفة بالثقوب السوداء (black holes)^(١). وهكذا تستمر الاكتشافات ويستمر إعجاز القرآن وعطاؤه.

الفصل الخامس

الربط بين الأصالة والمعاصرة

من الفوائد المهمة في فهم وتطبيق هذه القاعدة في التفسير وخاصة في مجال الإعجاز العلمي: الربط بين أصالة التفسير بالمأثور ومعاصرة أسرار القرآن العلمية. وذلك يكون من خلال التأكيد على بعض آراء السلف في الآية بعد التمهيد، وما تبين لهم فيها، ثم التعرّيج على النواحي العلمية الحديثة التي تشير إليها الآية. ثم لا يُغلق باب التأويل، بل يبقى مفتوحاً لتطورات العلوم عبر الزمن، لاكتشاف أبعاد جديدة قد غفلنا عنها. بهذه الطريقة، ننفادي المعركة المفتعلة بين التفسير بالمأثور والتفسير العلمي، وذلك من خلال تعظيم النقل والأخذ به، والاجتهاد بالعقل لإبراز إعجاز القرآن وربطه بالواقع المشاهد، مع احترام الضوابط المعروفة في هذا المجال.

والإعجاز العلمي الذي نكتشفه في القرآن الكريم ليس إلا من باب تفسير الكتاب المسطور بالكتاب المشاهد المنظور، وكلٌّ من عند الله، وأسرار الكتاب المنظور لم تصبح واقعاً مشاهداً إلا بعد أن أذن لذلك الحي القيوم جل في علاه، فلا تعارض بين الأخذ بالمأثور والأخذ بالمشاهد المنظور. يقول الزندانى: «إن معاني الآيات المتعلقة بالأمور الغيبية، ودلالاتها اللغوية معلومة، لكن الكيفيات والتفاصيل محجوبة، وإن من وصف حقائق الوحي الكونية، بدقائقها وتفصيلها، بعد أن كشفها الله، وجلاها للأعين، غير

(١) النجار، زغلول، قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها (الجيزة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، ص ١٢٥.

من وصفها من خلال نص يُسمَع، ولا يرى مدلوله الواقعي، لأن وصف من سمع وشاهد غير من سمع فقط»^(١).

هذا الفهم يتيح للمفسّر شرح آيات الله بما جاء عن أفضل القرون: الصحابة، والتابعين، وفي نفس الوقت يفتح له آفاق العلم والمعرفة التي يُرشدنا القرآن إلى التعرف عليها، وهذا حفاظاً على ريادة القرآن في كل مجالات الحياة. في مثل ذلك يوصي زغلول النجار بأنه ينبغي: «عدم التقليل من جهود العلماء السابقين في محاولاتهم المخلصة لفهم دلالة تلك الآيات الكونية في حدود المعلومات التي كانت متاحة لهم في زمانهم؛ وذلك لأن الآية الكونية الواردة في كتاب الله تتسع دلالتها مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد؛ حتى يظل القرآن الكريم مهيمناً على المعارف الإنسانية مهما اتسعت دوائرها. وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله»^(٢).

(١) عبد المجيد الزنداني، «المعجزة العلمية في القرآن والسنة»، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن

والسنة www.eajaz.org

(٢) النجار، قضية الإعجاز العلمي، ص ٩٥.

الخاتمة

تبين - من خلال البحث - أن الإمام الطبري نهجاً فريداً في تفسيره بالنسبة للقاعدة المذكورة؛ حيث أبقى العام على عمومه ما لم ترد قرينة مقنعة للتخصيص. وتظهر أهمية تلك القاعدة بالنسبة لإعجاز القرآن العلمي في إفساح المجال لمعانٍ علمية جديدة وصحيحة قد يُماط اللثام عنها بمرور الزمن وتطور المعارف البشرية. وتمثل هذه القاعدة حلقة وصل بين تفسير الصحابة والتابعين والتأويلات العلمية الحديثة لآيات الظواهر الكونية؛ تلك التأويلات الرصينة المبنية على ما أجمع عليه أهل العلم والاختصاص، وخرج من دائرة النظرية والظن.

وبهذه الطريقة، لا نجد أي غضاضة في حمل كلام الله على ما ذكره بعض مفسري السلف وعلى ما اكتشفناه حديثاً من جوانب الإعجاز العلمي كذلك، وذلك ضمن سلسلة غير منقطعة من الجهود لتأويل كلام الحق تبارك وتعالى واكتشاف أسرارها بما يليق بعظمته وإعجازه المستمر حسب القواعد الثابتة المتبعة.

أهم النتائج

- ١ - الإبقاء على العموم وعدم التخصيص إلا بحجة مناسبة جداً عند تفسير آيات القرآن كما عرض ذلك الإمام الطبري في تفسيره.
- ٢ - أهمية الإجمال في آيات القرآن وألفاظه لتَحَقُّق صفة الإعجاز العلمي فيه، واستخراج تلك الكنوز العلمية في العصر والوقت المناسب.
- ٣ - تكثير معاني القرآن الصحيحة مطلوب، وهو أصل مهم في تفسير آياته؛ وذلك لإظهار غزارة معاني القرآن وأبعاد مقاصده ومراميه.
- ٤ - قابلية تقسيم آيات الإعجاز العلمي في القرآن إلى ثلاثة أقسام: ١ - ما ورد بدلالة واضحة لكن بأبعاد لم تُكتشف بعد ٢ - ما ورد مُجْمَلًا ٣ - ما جاء على سبيل المثل والمجاز.
- ٥ - الإعجاز العلمي في القرآن ليس إلا من قبيل فهم الكتاب المسطور بما أظهره الله لنا

من أسرار الكتاب المشاهد المنظور، وكلُّ من عند الله.

٦ - حسن استخدام القاعدة الأصولية «عدم تخصيص العموم إلا بحجة» في التفسير يتمشى مع روح القرآن واستمرارية إعجازه العلمي، وهو ما يبقى باب التأويل المنضبط مفتوحاً للأجيال القادمة.

٧ - عدم التعارض بين التفسير بأراء السلف من الصحابة والتابعين وإثبات الإعجاز العلمي في تلك الآيات، وهذا أيضاً من ثمرات استخدام القاعدة المذكورة في مجال التفسير.

والحمد لله أولاً وأخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ٢٠٠٨).
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).
- ابن النجار، محمد بن أحمد، شرح الكوكب المنير (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ٢٠٠٣).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، مقدمة في أصول التفسير (عمان: دار عمار، ١٩٩٧).
- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان، كتاب الثقات (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨).
- ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٤).
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠).
- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤).
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠).
- ابن عساکر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٧).
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (بيروت: عالم الكتب، د.ت).

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب (بيروت: دار صادر، ١٩٩٠).
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٩٩٢).
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١).
- أحمد بن محمد بن حنبل، المسند (القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٥).
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري (دمشق: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٨).
- البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠١٠).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي: الجامع الصحيح (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٢).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩).
- حامدي، عبد الكريم، أثر القواعد الأصولية اللغوية في استنباط أحكام القرآن (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٨).
- الحربي، حسين بن علي، قواعد الترجيح عند المفسرين: دراسة نظرية تطبيقية (الرياض: دار القاسم، ط ٢، ٢٠٠٨).
- الحسن، خليفة بابكر، تخصيص النصوص بالأدلة الإجتهدية عند الأصوليين (الأزهر: دار التوفيق النموذجية للطباعة، ١٩٩٣).
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٩٩).
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ٢، ٢٠٠٤).

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٩، ١٩٩٣).
- الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون (القاهرة: دار الحديث، ٢٠١٢).
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، المحصول في علم أصول الفقه (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٩٢).
- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار (بيروت: دار المعرفة، ط ٢، د.ت).
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، بحوث في أصول التفسير ومناهجه (الرياض: د.ن، ط ٧، ١٤٢٤هـ).
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠١).
- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٥).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١).
- الزركلي، خير الدين، الأعلام (بيروت: دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٩٩).
- الزندانى، عبد المجيد، و السمرة، محمد إبراهيم، و راو، دركا برسادا، منطقة المصب والحواجز بين البحار في القرآن الكريم (مكة: هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د.ت).
- السبت، خالد بن عثمان، قواعد التفسير: جمعا ودراسة (د.م: دار ابن عفان، د.ت).
- السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، أصول السرخسي (بيروت: دار الكتب

- العلمية، ط ٢، ٢٠٠٥).
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن (الدمام: دار ابن الجوزي، ط ٢، ١٤٢١ هـ).
 - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن (دمشق: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، ١٩٩٦).
 - الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الموافقات (الجيزة: دار ابن عفان، ٢٠٠٠).
 - الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة (القاهرة: دار التراث، ط ٢، ١٩٧٩).
 - شعبان، مروان وحيد، الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث: دراسة تاريخية وتطبيقات معاصرة (بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٦).
 - الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦).
 - الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (الرياض: دار الفضيلة؛ بيروت: مؤسسة الريان، ٢٠٠٠).
 - الشيخ، محمد بن الهادي، «جوانب من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في مجالي التطهير والتعدين»، بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة: علوم الأرض والبحار.
 - الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، المصنف (جوهانسبرغ: المجلس العلمي، ط ٢، ١٩٨٣).
 - الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير، أصول الفقه المسمى إجابة السائل شرح بغية الآمل (بيروت: مؤسسة الرسالة؛ صنعاء: مكتبة الجيل الجديد، ١٩٨٦).
 - الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير (الشارقة: مكتبة الأصاله والتراث؛ بيروت: مؤسسة الريان، ٢٠١٠).

- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق محمود شاكر الحرستاني (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- الطيار، مساعد بن سليمان، فصول في أصول التفسير (الدمام: دار ابن الجوزي، ط ٣، ١٩٩٩).
- عبد الباري، عبد المجيد الشيخ، «الروايات التفسيرية في فتح الباري»، المكتبة الشاملة (رسالة دكتوراة، ٢٠٠٦).
- عبد المجيد الزنداني، «المعجزة العلمية في القرآن والسنة»، موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة www.eajaz.org.
- العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده (بيروت: دار النفائس، ط ٥، ٢٠٠٧).
- غنيم، كارم السيد، الإشارات العلمية في القرآن الكريم: بين الدراسة والتطبيق، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٥).
- القرافي، أحمد بن إدريس، العقد المنظوم في الخصوص والعموم (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١).
- القرافي، أحمد بن إدريس، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٤).
- الكافي، محمد بن سليمان، التيسير في قواعد علم التفسير (دمشق: دار القلم؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٩٩٠).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، النكت والعيون (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).
- المزي، أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤).
- مسلم، مصطفى، مباحث في إعجاز القرآن (دمشق: دار القلم، ط ٤، ٢٠٠٨).

- الموسوعة الفقهية الكويتية (الكويت: دار السلاسل، ط ٢).
- النجار، زغلول، قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها (الجيزة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦).
- النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١).
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، تهذيب الأسماء واللغات (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦).
- وادي، علي أحمد، و الجنابي، إخلص أحمد، أساسيات علم النفس الفسيولوجي (عمان: دار جرير، ٢٠٠٥).
- "A Glimpse of the Very Early Universal Web", European Southern Observatory, www.eso.org, May 2001.
- "Dynamics of Mediterranean Deep Waters", CIESM Workshop Monographs, Monaco, 2009.
- "NASA Great Observatories Find Candidate for Most Distant Object in the Universe to Date", www.nasa.gov, November 2012.
- "Shedding Light on the Cosmic Skeleton", European Southern Observatory, www.eso.org, November 2009.
- "The Millennium Simulation Project", Max Planck Institut fur Astrophysik, www.mpa-garching.mpg.de.
- Duncan, Todd, & Tyler, Craig, Your Cosmic Context: An Introduction to Modern Cosmology (San Francisco: Pearson Education Inc, 2009).
- Emery, W.J., "Ocean Circulation: Water Types and Water Masses", Encyclopedia of Atmospheric Sciences (Elsevier: 2003).
- Garrison, Tom, Essentials of Oceanography (California: Brooks/

- Cole-Thomson Learning, 3rd ed., 2004).
- Kalat, James W., *Biological Psychology* (Canada: Thomson Wadsworth, 9th ed., 2007).
 - Kolb, Bryan, & Whishaw, Ian Q., *An Introduction to Brain and Behavior* (New York: Worth Publishers, 2nd ed., 2006).
 - Wall, Mike, “Ancient Galaxy May Be Most Distant Ever Seen”, www.space.com, December 2012.
 - Weinberg, Steven, *Cosmology* (New York: Oxford University Press, 2008).
 - Wells, Neil, *The Atmosphere and Ocean: A Physical Introduction* (New York: Wiley, 2nd ed., 1997).
 - Wudka, Jose, *Space-Time, Relativity, and Cosmology* (New York: Cambridge University Press, 2006).

